# استحضار الصحراء في كتابات مليكة مقدم: قراءة في العمق والتمفصلات

*Evoking the Desert in the Writings of Malika Mekaddem: A Reading in Depth and Details*

الدكتورة: سوسن ابرادشة

قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر 2 (الجزائر)

**مخبر الترجمة والمصطلح، جامعة الجزائر2.**

*soucene.bradcha@univ-alger2.dz*

تاريخ الإيداع: 2023/04/01 تاريخ القبول: 2023/08/12 تاريخ النشر : 2023/12/05

**ملخص:**

تهدف هذه الدراسة إلى تناول المتخيل السردي للصحراء في كتابات الروائية الجزائرية "مليكة مقدم"، التي سعت إلى تقديم صورة خاصة بها حول المكان الذي نشأت فيه وانطلقت منه، فجاءت كل أعمالها متضمنة صورا عديدة للصحراء بتفاصيلها المكونة لها، من بيئة، وعادات، وتقاليد، ونمطٍ تعايشي يجمع بين ساكنيها، فظهرت الصحراء كموضوع طارئ يتمفصل في جزئيات أعمالها السردية.

وسنقوم من خلال عملها "أدين بكل شيء للنسيان" و"الممنوعة" بقراءة تفكيكية ثقافية للبحث في عمق تمثيلات الصحراء وتمفصلاتها وصورها التي شكلتها.

**الكلمات المفتاحية:** استحضار، الصحراء، مليكة مقدم، أدين بكل شيء للنسيان، الممنوعة.

***Abstract :***

This study aims to address the narrative imaginary of the desert in the writings of the Algerian Sahrawi novelist "Malika Mekaddam", who sought to present her own image of the place in which she grew up and started from. , and a coexistence pattern that unites its inhabitants, so the desert appeared as an emergency topic that articulates the details of its narrative works.

Through her works "I owe everything to oblivion" and "The Forbidden", we will read a cultural deconstruction to explore the depths of representations of the desert, its articulations and the images that shaped it.

***key words:*** evocation, the desert, Malika Mekaddam, I owe everything to oblivion, the forbidden

**مقدمة:**

تَعتبرُ الروائية والطبيبة الجزائرية "مليكة مقدم"[1] الكتابةَ وسيلة للتحرر من أغلال الماضي، وانفتاحا على العوالم التي مُنعت من ولوجها قبل ذلك، فكثيرا ما راحت تستحضر في كتاباتها ذكرياتها وعلاقاتها وندوب الحياة التي بقيت راسخة في مخيلتها، وكثيرا ما كان لهذا الاستحضار أبعاد تحمل دلالات عديدة، منها ما هي نفسية ومنها ما هي إيديولوجية، ومنها ما هي ثقافية أو حتى عقائدية، فالصحراء التي كانت منطلق هذه الكاتبة ومجالها الفسيح الذي نشأت فيه، ظهرت واضحة بصور مخالفة عن نمطية التناول والحصر في المنجز السردي الجزائري، إنّها تسعى لتقديمها على شاكلتها التي تعايشت وإياها، فالصحراء في سرد مليكة مقدم هو جزء من ذاكرتها وكينونتها ومرتع وجودها، إنّها ابنة الصحراء التي انتصرت عليها وقاومت جحودها وتمردت عن قوانينها، فتألقت في ضفة أخرى مناظرة لصحراء مقدم، وتحولت من حبة رمل قاسية إلى موجة بحر نشيطة تمتد لوهلة وتجزر بعد ذلك، وهو ما جسدته أعمالها السردية دون استثناء؛ ولعلنا نخص بالقراءة والتفكيك في هذه الدراسة اثنين من أهم أعمالها هما: "أدين بكل شيء للنسيان"[2] و"الممنوعة"[3].

فإلى أي مدى تشاركت مليكة مقدم وقرائها أسرار الصحراء، وكيف استحضرت حكاياها وصوَّرتها لتُبقيها حية راسخة في السرود والروايات؟

## 1. السيّرة الصحراوية وذاتية السرد:

إنّ علاقة الفضاء بالنص الروائي علاقة معقدة، تنبني من أسس وجودية يعيش ضمنها الكاتب وينطلق على أساسها لرحابة الخيال واتساع الرؤى، باعتبار الكاتب يبحث عن سلطته وحريته داخل كتاباته التي تُعتبر مسكنه الخاص، لكنه في الحقيقة مرتبط بالفضاء الذي حوله وبمتغيراته، وهو ما يحيل إليه ابن الرشيق القيرواني في كتابه العمدة، حيث يقول: "... والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد للأخبية.."[4]

فالحديث هنا عن بيت الشعر يضاهي الحديث عن فقرة من رواية، فالفضاء النصي في الشعر والنثر سيان، لكننا نكتفي بقول ابن الرشيق لأنه أحال إلى أنّ الجمع بين بيت السكن كإطار يتواجد به الإنسان، وبيت الشعر كإطار للمعنى، وتشبيه العناصر الفنية للنص الشعري بالدعائم التي يقوم عليها المسكن إنما هو ربط بين عناصر الحياة الاجتماعي منها بالفني ممثلا في الشعر، والذي كما أحلنا سابقا لا يختلف البتة عن النثر.

وانطلاقا من هذه الفكرة، نحاول الربط بين الفضاء النصي الذي اعتمدته مليكة مقدم، والذي طرح نفسه بقوة ليبرز في جلّ أعمالها، فهي ابنة الصحراء التي لا مهرب لها من ذاكرتها، تقول: "رأت سلمى نفسها هناك في الصحراء، كم كان سنها؟ ثلاث سنين ونصف؟ ليس أكثر.."[5]

فالعودة إلى البداية واستمرارية الاستحضار للمنبت الأول لدى الكاتبة، يعود إلى مسوغاته المثبتة في ذاكرة الكاتبة، فمهما أدركت الكاتبة أمكنة نصية جديدة تظل محتفظة في عمق وعيها بالنموذج، ويظل ترسيخ الصحراء قائما في ذهنها، وقد تكون هذه المحافظة العميقة نتيجة وفاء لروح المكان والتراث وحب الوطن واقترانه بشيء لا يمكن تفسيره إلا بالسرد.

تقول: "وُلدت في درب القصر الوحيد، درب بلا اسم، تلك هي الفكرة الوحيدة التي انتابتني أمام هذه الفيافي التي غطت ارتباكي بشلال من الضحكات الصامتة.

لم أكن أتصور أبدا بأنني أستطيع العودة يوما إلى هذه المنطقة، ومع ذلك لم أبتعد عنها بشكل نهائي أبدًا.

كل ما فعلته هو أنني ألحقت الصحراء والحزن الشديد إلى جسمي المهجر وبقيت مجزأة بينهما..."[6]

من هنا تتجلى العلاقة الوطيدة بين المكان والذات الساردة، وبين السيرة الصحراوية وذاتية السرد، فالكاتبة لا تتملص من سيرتها كما الصحراء، إنّها تختزن في ذاكرتها كل السرود المرتبطة بالأمكنة التي انطلقت منها، فهي تسافر بجسدها بعيدا، لكن روحها لا تحلق معها، أو أنها تحمل كل هواجسها وأفكارها وذكرياتها معها أينما حلت وارتحلت، تقول: "لم أنسّ أنّ أطفال بلادي يملكون طفولة مريضة، منحلة، لم أنسّ أصواتهم الشفافة التي لا ترنّ إلا بأغلظ الفواحش، لم أنسّ أنّهم ومنذ الطفولة المبكرة لا يكتسي الجنس الآخر في رغباتهم إلا صورة شبح مبهم يهدّدهم، لم أنسّ عيونهم الملائكية، لم أنسّ...، لم أنسّ ...."[7]

فالنسيان في قاموس مليكة مقدم لا يمسُّ ذاكرة الطفولة والصبا، فقضية استحضار الصحراء في سرد مقدم يشابه الدَّين الذي يجب تذّكره إلى حين تسويته، لكنّه عندها لم ولن يتم دفعه، ولذلك يلجّ خصوصية خطاباتها، فالصحراء عقيدتها التي تؤمن بها، لذلك هي لا

تتملص منها ولا تدفع دَينها اتجاهها، فعلاقة الكاتبة بالصحراء علاقة معقدة ممزوجة بالحب والكره، مختلطة بين الحب والألم، لذلك ترتبط بكل سرودها فهي تنم عن تجربتها الشعورية اتجاه كل الأشياء، فلا يهم إن أحبت الكاتبة الصحراء رغبة فيها أو رغما عنها، بل الأهم هو تجربة التواصل والاستحضار والاستذكار التي تعيشها الكاتبة دون انقطاع، فتلجأ إليها في كل تمفصلات أعمالها الإبداعية. وهي التي تؤكد ذلك حين تقول: "لم تستطع كل هذه الاعتبارات القضاء على ارتباك سلمى.. تحاول مجددا أن تطمئن نفسها: وقع لي حادث حيوي للذاكرة..."[8]

فهاهي تنتقل من محاورة الشخصية لمحاورة ذاتها ، فتستمد منها ذاكرتها العنيدة التي تأبى النسيان، وتخشى فقدان نشاطها، فتظل تقاوم بشدّة سيرتها الصحراوية وذاتها الساردة، إلى أن تكتشف غربة الحكي فتسعى بعدها إلى مفارقة الصحراء في شكل يخالف عوالمها السردية.

## 2. مفارقة الصحراء وغربة الحكي:

تُعتبر الصحراء بقسوة طبيعتها وشحوب مظهرها بنية دائمة، فهي ليست مجرد وهم أو خيال بقدر ما هي فضاء وجودي يعلل أسئلة الحياة من بدايتها، وإذا كانت بالنسبة للإنسان الجاهل لشِعابها شكلا جديدا يودُّ التعرف عليه ليروي عطش الفضول لديه، فإنها بالنسبة لساكنيها أسلوب ونمط للتعبير، ينطلق منه جامعا أفكارًا متعددة ليوصلها بطريقته التي يراها مناسبة، لكنّه في الغالب قد يفارقها ليُعدد فضاءاته النصية، ويجرب عوالم نصية مخالفة، فالتحوير في بنية النص الروائي هو تحوير له دلالته، والتحوير في غالب الأمر هو تغيير الفضاء النصي (الزمني أو المكاني)، فالكاتب ينطلق مرة أخرى في نصه ليفارق ما قاله أو ما طرحه قبل ذلك، وفي مفارقة الصحراء تبرز أماكن عديدة كاستحضار البحر أو التلال أو الثلوج...

ولعل مليكة مقدم فارقت الصحراء عن طريق البحر، فاغتربت بحكيها نحو الضفة الأخرى من منبتها، تقول: "لطالما أحببت المشي على شاطئ البحر غسقا،مالت الريح نحو الجنوب هذا الصباح، قرص الشمس على وجه الماء، عين حريق مرعب، الريح باردة جدا بالتعاكس،...شرعت في الجري، جرت وجرت، الليل تهديد يصل ويغمر السماء والبحر..."[9]

فها هو النمط الروائي ينتقل من الصحراء إلى البحر، ويغير طبيعته نحو الجهة المعاكسة، في لعبة تبادل الأضداد والحضور، والتي يلغي فيها ذاته ليحضر الآخر، فالصحراء نقيض البحر، واستحضار البحر والتخلي عن الصحراء فيه نوع من المفارقة والغربة والاغتراب، ولكي تشعر الكاتبة بكل هذه الانفعالات وجب عليها التخلي والمفارقة، رغم أنّها تدرك تماما أهمية استحضار الصحراء وسيل الأحاسيس والوِجدان التي تفيض حين ارتباطهما معا.

تقول: "أصبحت سلمى تدرك بداية من الآن، أنّ لا شيء يساعدها على رؤية أعماقها بصفاء سوى السفر إلى الصحراء..."[10]

لتضيف بعدها، موظفة صيغة الاغتراب: "أترغب فعلا في الذهاب إلى الصحراء؟

كلمة صحراء كافية لبلورة كل الرعب الطفولي... "[11]

أو كما في قولها:

"مرت عشر سنوات لم تلتق فيها ياسين، أليس كذلك؟

نعم، ومرت خمسة عشر سنة منذ غادرت عين النخلة . الصحراء ـ

عشر سنوات؟ أحيانا يصبح عبور بحر الأبيض المتوسط مستحيلا

الهاوية بداخلنا.. لم أتعرف عن شيء هنا

كنت تعيشين في القصر؟

نعم وهناك وُلدت

أصبح القصر فارغا، هجره الناس

نعم عرفت ذلك، وهذا ما جعلني أرتاح لقرار عدم لعودة الذي اتخذته لحظة الرحيل."[12]

الكاتبة مليكة مقدم مولعة بالصحراء إلى حد لبسها الصحراء كثوب ثم اقتلاعها إياه، دون التخلي عن رداء يشابهه، فهاهي تهرب من عين النخلة من المكان الذي وُلدت فيه، ثم تهاجر نحو الضفة الأخرى من العالم، لكنها تستعيد كل ما يمس صحراءها، فيحدث اندماجا في الفضاءات النصية، لتنقل للقارئ مجالين رمزيين هما : الصحراء والبحر، في حين يحضر الرمل في كليهما، وتَحضر هويتها كحبة رمل قاسية استحال عليها التفتت والزوال، وعبر هذا الإيهام تنجلي إيهامات أخرى للكاتبة مثل حفر الغيبيات والتمسك بالذاكرة، هذه الذاكرة التي تمطرها خصوبة سردية ونماءً حكائيا، "فالحفر في المكان هو حفر في عمق الذات، فقلما نعثر على شكل مكان روائي يخلو عن محاولات الكاتب الغوص في الأعماق"[13]، لذلك ارتبطت الأمكنة في روايتي "الممنوعة" و"أدين بكل شيء للنسيان" بالتجربة الشعورية للكاتبة، فاستحضار الصحراء يعدّ الأنسب لفرد تجاربها دون اعتبار لزمن الطرح، فالاسترجاع الزمني الحاصل في الروايتين أو الاستباق الزمني لم يشكلا لوحة زمنية بارزة مثلما فعل حضور الصحراء فيهما، وإن كانت الكتابة تحقق الحضور الأنثوي للمرأة، لتواجه بها الآخر للرد على مزاعمه لتحقيق ذلك تعمل جاهدة لاكتساب لغة خاصة بها تميزها عن الآخر، لغة تتخطى بها حاجز الضعف الذي أوقعها فيه الرجل الشبيه بشخصه ومزاجه بالصحراء، فالصحراء تنغمس في عمق الرجل، فتجعل قوانينه شبيهة بقوانينها، وكل ما يتعلق بها يشبه الرجولة، فتحس أنّ الصحراء ذكورية بطبعها أو أنّ الرجل استوحى شخصيته من الصحراء، فمن عمق الصحراء تصرخ الكاتبة محاولة

الانتصار على الرجل بالكلمات، ذلك الرجل الذي يعيش الصحاري فيبدو مثلها، لكنها تجد في الرجل الآخر سحرًا خاصا يجعله شبيها ببيئته، ساحرًا ومغامرًا كما البحر، تقول مليكة مقدم في هذا الصدد: " سآخذها معي في السفينة، سأحملها في مهد البحار، من الآن أرى دوارة الهواء تحفر السماوات، والصالب الذي ينزلق ويشق رغبة زرقاء، والهدوء الكبير الذي يتعلق بالأشرعة، يغضن كتانها ويصقل أسرارا مائية، واللمعنات التي يمددها بين الأماكن البعيدة وبين أحلامنا، سنذهب إلى فولغادورس سهم جاثم في الأعلى.... سنذهب إلى أمورغوس أين يمنح حضن بحر إمكانية الإرساء في مأمن حتى عن السياح.. وعلى خط الماء، سينسج حبي رغباتها، الآن حين أستيقظ أفكر فيها أولا، أفكر فيها طويلا.."[14]

من عمق الضفة المقابلة يصرخ الرجل، رجل البحر ليقر بمشاعره ويكشف عن مخططاته دونما خوف أو خجل، يحاول الانتصار على الموت وهو يُحتضر ليكشف عن عشقه لهذه المرأة، التي أرعبتها الصحراء فَغَرَّبتها، وأَرّعبها رجل الصحراء فجعلها فاشلة في علاقاتها مع الآخر، وهو ما يحدد ميكانيزمات العمل الروائي لدى الكاتبة التي تشتغل على الاستحضار في سرد تفاصيل كتاباتها، فخطابها هو خطاب مبني على علاقته بالذاكرة، الذاكرة الحيوية التي تشتغل لتبدع، فهي تعود إلى ذهنها التاريخي البعيد، لتستحضر مشاعرها فتتدفق مسترسلة، وهي لا تستطيع أن تقول حاضرها من غير هذه الضفاف والروافد، وفي هذا انفتاح على إبداع الماضي وما اختزلته الذاكرة من أحداث وتفاصيل، فيظهر خطابها جدليا يجمع بين الماضي البعيد والحاضر القريب، حيث يتبارى صوت الماضي وهو صوت واحد مع أصوات الحاضر والمستقبل والمتخيل والمبدع، وكل هذه الأصوات هي أصوات النصوص التي تسكن المبدعة في أزمان مختلفة، الثقافية والإيديولوجية والنفسية والاجتماعية والدينية. جميعها تجتمع لتنتج نصا واحدا يشمل ما جادت به ذاكرتها .

### 3. الصحراء شرط الإبداع:

إنّ للنص الروائي حقيقة هويته الخاصة وهي هوية تتشكل أساسا عبر بنية لغته، لكن هذه البنية لا تمنع أن يكون النصُ نفسه جزءًا من بنيته الخارجية، فهو داخل يتموقع في محيط يستحيل أن يخلو من تأثره به وتأثيره فيه، إنّه بنية منتجة في إطار بنيات ثقافية، واجتماعية، ونفسية، "وهو يتفاعل معها لكنه في الآن ذاته يتعالى عليها من خلال إمساكه بزمنيتها الجوهرية المتعالية"[15]، وتعاليه عليها يتحدد من خلال عنصر المجاوزة، إذ أنّ النص الحي لا يمكن أن يكون مجرد وثيقة تعكس الواقع بل إنه عالم من الرفض واللا قبول، والواضح أنّ أهم ركيزة ترتكز عليها مليكة مقدم ككاتبة هي ركيزة المفارقة، مفارقة الأعراف

الجمالية والبنائية التي ألفها الذوق العام، وبحثها عن ميلاد جديد تكون فيه سيدة اللغة لا عبدة لها، ومنشئة للفضاء الزمني والمكاني لا سجينة له، لكنها رغم ذلك تستحضر الصحراء لتنطلق في سردها، وحين تتوقف عجلة السرد لديها تلجأ لها أيضا، إنّها تفارق اللغة والمعنى، وتخالف الأعراف وترفض العادات والتقاليد؛ لكنها لا تفارق الصحراء أبدًا !!

فالصحراء شرط من شروط الإبداع لدى الكاتبة، فهي الممنوعة، وهي المتمردة، وهي الكاتبة التي تخطت كل الحواجز فكشفت عيوب صحرائها، وزيف عاداتها، وقسوة رجالها، وحقد نسائها، بل راحت تسرد عيوبها وتكتب سيرتها، دون تزييف أو تغيير، أو تلميع لشخصها، ولم تبرر لأحد فعلها ذلك، بل اكتفت بالسرد وانتهى؛ لكنها لم تستطع التملص نهائيا من الصحراء فإذا تأملنا عملها موضوع الدراسة، نجدها لم تتجاوز الصحراء في باطنها، وحتى وإن استدعت أنساق ثقافية مختلفة عنها، فإنّ ذلك يكون حين التمرد والتحرر، حتى أضحت الكتابة سبيلا للتعويض وطريقا نحو النور، من أجل التحرر والانعتاق.

تقول: " بمقدور سلمى أن تتأكد من صحة صدق تضامن ناس الصحراء وسخائهم.. لم تنم سلمى لوحدها... على أحد مقاعد حجرة الضيوف، الغرف الأخرى محجوزة أيضا، بقيت مجموعة من النسوة، الممدات على زربية مغطاة بأفرشة موضوعة جنبا إلى جنب، يتهامسن إلى ساعة متأخرة، هل ذهاب الأم هو الذي يحرر المسكوت عنه؟ هل يعود الفضل للظلام للبوح بأسرارهن التي أخمدت همتها عينا سلمى الجافتان في وضح النهار؟ هل اختلاط الأجساد واسترخاؤها مع اقتراب النوم هو الذي ساعة على البوح؟

يتداولن الواحدة تلو الأخرى لإعلامها وتقديم كلمات مهدئة: "لو تعلمين كم كانت أمك فخورة بك، كانت مقتنعة بأنك حتى لو سكنت المريخ فإن دعمك لها سيظل أكيد"... قالت لي في الأسبوع الماضي: "امنحيني ما يمكن أن أصلح به الثلاجة، ستأتي ابنتي بعد خمسة عشر يوما وسأعوضك وقتئذ، وفي العام الماضي في هذا التاريخ بالذات، ستدفع لي ابنتي ثمن الحج إلى مكة، ليكن في علمك أنها صرحت لي شخصيا: "سأصبح هرابة بدوري، بعد مكة سأعود إلى بيت ابنتي في فرنسا، ابنتي طبيبة لا تعرف سوى العمل والقراءة والتجول.."[16]

تحاول الكاتبة أن تتخطى مرحلة النهاية في صحرائها الخاوية، فالنهاية كانت حين دفنت آخر من آمن بها، وآخر من كان سندا حقيقيا لها، كانت والدتها الشيء الوحيد الذي يخفف عنها سطوة ذاكرتها، وقسوة الحياة من بعدها، وحتى حين هربت من الصحراء، بقيت والدتها هاجسا تشعر بتقريبها إليه، إنّ هذا الشعور يُكسب الكاتبة بعدًا فكريا آخر، فيزيد تمردها ويُضحي شعورها بالابتعاد واجبًا لا بد من حدوثه، فالحياة في هذا المكان الرهيب، ومن دون أن تكون والدتها موجودة فيه، أضحى مستحيلا !

فمهما كانت الصورة مسالمة ومهما حاولت أن تبحث عن زينةٍ تُبقيها في ذلك المكان، إلا أنّها ستمارس شكلا من أشكال تمردها، فالكاتب / المبدع يهدف في نهاية الحدث إلى تحرره من كل ما يؤرقه، أو يمنع إبداعه، بل ويسعى أن تترسخ في ذاكرته مظاهر القسر والإكراه ليواجهها ويتحرر منها، فبقاؤها من بعد دفن والدتها كان من أجل ترسيخ كرهها وتبريرها لفعلها ذلك، فأن تواجه ذاتها الرافضة للعودة، وتصارع مشاعرها التي تُحيي فيها حب الوطن، الأم، الصحراء، كل ذلك كان أمر جد صعب.

تقول: "استولى عليها شعور غريب، عند الخروج من بشار، كأنها تأخذ معها جسد أمها، في موكب احتفالي ونص مقدس، من أجل صلاة الجنازة، عادت إلى ذاكرتها، في ليلة الموت السحيقة في القدم، إحدى قراءات المراهقة المثيرة: فيما أنا أحتضر لفوكنر."[17]

يصبح المنفى كفضاء أجنبي وسيلة للهروب وطريقة للتحرر من الماضي، ومن معتقداته المرتبطة بالصحراء والوطن والأهل والأصدقاء، فهي ترفض المصالحة مع جميع هؤلاء وتجعل القارئ يحس بأنّهم جميعا كانوا السبب في حزنها، أو مرضها، أو حتى في وفاة والدتها قهرا على عدم رؤيتها، إنّها تسرد بالشكل الذي يورط القارئ معها، فيجعلها ضحية القهر والاستلاب، ويتعاطف معها حتى وهي تعترف بجحودها وتقصيرها في محاولة الصلح مع الذات، فطريقة مليكة مقدم في الكتابة السردية تأتي كنوع من النوستالجيا، التي تبتدئ بالسرد المعاكس لتنتهي بكشف حيثيات الحدث وتفاصيله دونما تحوير أو تزييف.

وهي بهذا تشد القارئ لمعرفة الحقيقة، ولكنها لا تخافُه حين تُعلن له مخططاتها التي في غالب كتاباتها تكون ساعية بها نحو خلاص ذاتها، دون اعتبار للآخر، ومهما كان هذا الآخر، حتى وإن تمثل الآخر في الحب، ففي الممنوعة نجدها تُفرط في علاقة حب صادقة من أجل أن تتحرر لنفسها، بالرغم من أنّها تحكي للقارئ نُبل هذه العلاقة وصدقها، وإخلاص الطرف الآخر لها، لتفاجئه في نهاية الرواية بعدم تمكنها من الاستمرارية وهروبها المفاجئ من هذه العلاقة التي تورطت فيها، إنّها تبني في مخيال القارئ نسقا تراتبيا منظما ثم تهدمه في نهاية العمل دون أن تُفقد القارئ شغف القراءة، وعلى هذا المنوال اشتغلت مليكة مقدم في عملها "الممنوعة" و"أدين بكل شيء للنسيان" حيث حركت ميكانيزمات السرد نحو المتلقي المتلهف لبؤرة الحكي عن طريق استحضار الثنائيات الضدية ومقابلتهما، كاستحضار الصحراء كماضي رهيب، وفي مقابله حضور البحر كمنجى منها، أو استحضار الأجواء الصحراوية الكئيبة كالرياح والشمس الحارقة والزوابع الرملية والسماء الصفراء في مقابل زرقة بحر الضفاف ونسائمه العليلة وسفوحه الجبلية الخضراء المغطاة بالثلوج، أو في تعمّدها وصف الشعب الجزائري بالقسوة والخشونة وغلظة الطبع وتدخله فيما لا يعنيه وانشغاله بأمور غيره، في مقابل وصفها الشعب

الأجنبي بأحسن الصفات، وأرقى المواصفات، فهم الشعب المتحضر المتمدن الذي لا يُظلم على أرضه أحد، ولعلنا بهذا نلمس تمردها الذي يرفض الإقرار بحقيقة الشعوب المستعمِرة التي ظلت تمارس استبدادها واستعمارها على شعوب العالم الثالث وترفض الاعتراف باستقلاليتهم، وهو ما شكل لهذه الشعوب عقدة الخوف والرهبة من كل ما له صلة بالمستعمِر، ولهذا بدت الفروق جلية في تعامل الكاتبة مع النمطين على الرغم من أنّها لا تتخلص البتة من هواجس الصحراء وذكرياتها، رغم نيلها الحرية فهي تنهي روايتها الممنوعة بقولها:

"أذيبهما وأخلطهما في صورة واحدة ، جرح حريتي المضيء"

فها هي تعلن عن نهايتها التي جمعت فيها كل الصور العالقة بذهنها من أجل مزجها، وإبقاء صورة واحدة تطفو فوق سطح الذاكرة، صورة الحرية التي نالتها رغم كل شيء.

إنها ومن خلال كل ما قدّمته ـ هي ـ من أعمال فنية إبداعية متنوعة تسعى إلى الوصول إلى فكرة "استنساخ الذاكرة" ، والتي ترجمتُها عمليًا كعنوان جاء على شاكلة: "استحضار الصحراء"، وهو ما تُبدع "مليكة مقدم" في فعله، فهي تكرر ذاتها في كل عمل تقدمه، دون أن يمل المتلقي من ذلك أو ينتبه له، لا تتملص من صحرائها ولا من سمارها، سيرتها الصحراوية هي سرودها الذاتية، وحتى حين تفارق الصحراء يتغرب حكيها، لذلك كانت الصحـــــــراء شرطا لتُأثث بها ـ بقسوتها ولؤمها وبشاعتها ـ إبداعها الروائي.

خاتمة:

لقد قادتنا دراستنا هذه إلى جملة مهمة من النتائج نذكر منها:

- تعتبر الصحراء في كتابات مليكة مقدم أهم المحاور التي تنبني عليها أعمالها السردية، وقضية مفصلية في طرح مواضيعها، فهي تنطلق منها لتعود إليها.
- الصحراء عند مليكة مقدم ومن خلال روايتها "الممنوعة" و"أدين بكل شيء للنسيان" هي موضوع قيّمي رئيسي سعت الكاتبة لتمثيله في برامجها السردية عن طريق استحضاره وتوظيفه من أجل تحقيق مشروعها الروائي وثبت غايتها الفنية.
- تحمل الصحراء في سرد مقدم أبعاد اجتماعية وثقافية إذ أنّها تعكس الواقع الحقيقي للحياة داخلها، كما تحكي المحظور الذي لا يمكن تجاوزه في عادات وتقاليد أهل الصحراء وشعبها.
- تمردت الكاتبة على الصحراء الثابتة ففضحت بؤسها وباحت عن صمتها وقسوتها، وكشفت ظلمها وجحودها، كما تحدت قمعها وراحت تستحضرها بالطريقة التي تبينُّ حقيقة الصحراء التي عاشت فيها وانطلقت منها.

**الهوامش :**

[1]مليكة مقدم كاتبة جزائرية تكتب باللغة الفرنسية، ولدت في أكتوبر 1949م في القنادسة ولاية بشار، درست طب الكلى في جامعة وهران لتنتقل للإقامة في فرنسا بعد ذلك، تعتبر أنّ العادات والتقاليد العربية والإسلامية تقاليد بالية وتضطهد المرأة، لذلك جعلت من قضية الدفاع عن المرأة أهم محاور كتاباتها السردية، من أهم أعمالها نذكر: رجالي (2005م)، الممنوعة(1993م)، أدين بكل شيء للنسيان (2012م)، الراغبة (2011م)، قرن الجراد(1992م)، الرجال الذين يمشون (1990م)، أحلام وقتلة (1995م)، نزيد (2001م)، ليلى والحرباء (1998م)، وقد شكلت رواياتها اتجاها فريدا من نوعه في الساحة الأدبية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، وعلى إثرها نالت عدّة جوائز منها: جائزة الأكاديمية بيتر عام 1991م، جائزة إفريقيا المتوسط عام 1992م، جائزة إفريقيا المتوسط عام 1993م.

[2]مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2012م.

[3]مليكة مقدم: الممنوعة، ترجمة: محمد ساري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2008م.

[4]ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج 1، دار الجيل ، بيروت، لبنان، ط 5، 1981م، ص: 121

[5]مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ص: 13

[6]مليكة مقدم: الممنوعة، ص: 07

[7]الرواية، ص: 12.

[8]أدين بكل شيء للنسيان، ص: 27

[9]الرواية، ص: 18

[10]الرواية، ص: 29

[11]الرواية، ص: 29

[12]الممنوعة، ص: 24

[13]صلاح صالح: قضايا المكان في الأدب المعاصر ، دار شرقيات للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط 1، 1994م، ص: 23

[14]الممنوعة، ص: 145

[15]سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط 1، 1989م، ص: 28

[16]أدين بكل شيء للنسيان، ص: 108

[17]الرواية، ص: 109

**قائمة المصادر والمراجع:**


1. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج 1، دار الجيل ، بيروت، لبنان، ط 5، 1981م.
2. سعيد يقطين: انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط 1، 1989م.
3. صلاح صالح: قضايا المكان في الأدب المعاصر ، دار شرقيات للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، ط 1، 1994م.
4. مليكة مقدم: أدين بكل شيء للنسيان، ترجمة: السعيد بوطاجين، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2012م.
5. مليكة مقدم: الممنوعة، ترجمة: محمد ساري، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2008م.